



الفصل السابع

تجربة مصر التحديدية والحركات الاصلاحية العربية

١- مصر: تكوين الدولة وبناء المجتمع المصري الحديث مقدمة:

لقد نجح محمد علي باشا في بناء دولة كان لها مؤسساتها السياسية - فيما بعد - وخططها المستقبلي. وكان يتمتع بطول عهده الذي يقترب من نصف قرن، بحس براغماتي، إذ خلق توازنًا حقيقياً بين اللامركزية الإدارية - العثمانية والاستقلال الذاتي - المصري، بحيث حقّق استقراراً سياسياً على نطاق واسع.. اتاح له تنفيذ برامجه في البناء الاقتصادي والثقافي والاجتماعي. وقبل هذا وذاك، عمل على تطوير آلاته وعناصرها العسكرية التي خدمته ليس في الدفاع عن كيانه السياسي، وإنما في التوسيع على أطراف عديدة.

يعد استقلال مصر محمد علي باشا عن الدولة العثمانية أول إنجاز كبير أكسبه المزيد من الشرعية السياسية والتاريخية، بل، وكان تهديده لعاصمة اسطنبول بمثابة إثارة سياسية أرعبت أوروبا، وقد سارعت إلى نجدة «الرجل المريض» الذي كانت تركيا العثمانية تمثله أصدق تمثيل.. كما وكان ذلك كلّه بمثابة دلالة تاريخية بالغة في خضم التكوين السياسي الحديث لمصر، فضلاً عن أن محمد علي باشا قد وفر مناخاً سياسياً في مصر مستقلاً عن الدولة العثمانية. من خلال التمثيل الدبلوماسي، والبعثات السياسية، وتوقيع المعاهدات، واتخاذ القرارات الفعالة. وقد جرى كل ذلك بعد القضاء على الأجهزة والعناصر القديمة، وكان على رأسها، المالكين والمشائخ وزعماء البلاد...

وقد استطاع محمد علي باشا أن يقرب وجهات النظر بالاعتماد على ملاكات جديدة في الأجهزة الحديثة التي بناها، فضلاً عن استعانته بالاقبات، واستخدامه للوسائل التي كانت تخدم واقعه السياسي والاجتماعي، ومنها: اصداراته لجريدة «الواقع المصرية» التي صدرت باللغة التركية، فعندما وجد ان ليس هناك مستقبل لتركية في مصر، اصدرها باللغة العربية، واتخذ هذه اللغة، لغة رسمية في اجهزة دولته كافة. واستعان ايضاً بالخبرات الاوروبية المتفوقة في بناء اجهزة دولته ومجتمعه معاً، ويمكننا الوقوف عند ابرز الاجراءات التي اتخذها في بناء الدولة:-

الاجراءات والخطط التحديدية:-

١/ المؤسسة العسكرية:-

إن ابرز الميادين التي شغلتها اجراءات محمد علي العسكرية هو الجيش الذي عده دعامة أساسية في ترسیخ التكوين السياسي - المصري وبناء دولته الحديثة. كوسيلة فعالة في التوسيع والامتداد على اطراف عديدة، فنجح في تطوير جيشه العربي وتقوية اسطوله البحري، إذ أدخل الاسلحة الحديثة، وطبق التدريبات الاوروبية مستفيداً من خبرات فرنسا بهذا الخصوص، وذلك باستضافته بعثة عسكرية فرنسية رسمية لتدريب جيشه، كما استعان بخبرات فرنسية أخرى في التنظيم العسكري، وانخرط الآلاف من المصريين والسودانيين في التدريب الذي اشرف عليه ضابط فرنسي لقبه المصريون بـ«سلیمان باشا الفرنساوي».

قام محمد علي باشا ايضاً بفتح المدارس العسكرية، وإعداد الملاكات القيادية - المصرية، واهتم بمدارس المشاة والخيالة والمدفعية، فضلاً عن انشائه كلية عسكرية في مصر. وفي عام ١٨٢٦م، انشأ اكاديمية لالرakan العامة، وأسس عدداً من المصانع العسكرية للمدافن والبنادق الحربية التي طورها الشباب المصري الذي درس فن بناء السفن في اوروبا، وتدرّب الآلاف من المصريين على فنون القتال في البحر بعد دراستهم في المدرسة البحرية العسكرية.. وترجمت الانظمة والتعليمات العسكرية الفرنسية الى اللغة العربية، واستخدمت في انشاء ذلك الجيش المصري النظامي الكبير الذي كانت القوة الالبانية نواته الاولى؛ ثم تم تجنيد الفلاحين المصريين وقد احرز محمد علي باشا من خلالهم انتصاراته في بلاد الشام.

لقد اتسع حجم جيش محمد علي باشا اتساعاً كبيراً، لكي يبلغ ١٨٠ الف جندي نظامي، وبلغ عدد القوات غير النظامية، حوالي ٤٠ الف مقاتل، في حين بلغ الاسطول البحري قرابة ٥٠ قطعة بحرية، وفضلاً عن كل ذلك فقد قام محمد علي باشا بتشييد عدد كبير من الحصون والثكنات والمعسكرات، اضافة الى تعميد القلاع القديمة.

لقد خطط محمد علي باشا سياسياً في بناء مؤسسته العسكرية الحديثة التي استعان بالخبرات الفرنسية لتدريب جيش ضخم لم يقتصر على المصريين فحسب، بل شمل الافارقة والسودانيين. ولم يأت ذلك البناء الا بعد اجراءاته التحديدية في التحولات الاجتماعية التي تغيرت بعدها البنية الاقطاعية. لقد بدأ بمحاولاته في التغيير الاجتماعي سبلاً من سبل تكوين الدولة الحديثة، وليس العكس مستفيداً من التجربة التاريخية المريرة التي وقع فيها السلطان سليم الثالث ومصطفى باشا البيرقدار اللذان ذهبا ضحية عام ١٨٠٨م على أيدي مراكز القوى الرجعية، وعلى رأسها الانكشارية التي كانت تمثل روح القرون الوسطى واعرافها، يقابلها بالمثل في مصر او لئك المماليك الذين استطاع محمد علي باشا بذلك أن يتغدى بهم قبل ان يتغذوا به. اما مثله الاعلى في التحديث الشرقي، فكان القيصر بطرس الاكبر، اذ كان يحلو له تشبيه نفسه بمصلح روسيا العظيم، وقد رسم المزيد من اعماله على نفس الخطى التي خطتها بطرس الاكبر، وهي خطة تقدمية في كل الاحوال.

٢ / الاستحداثات الادارية:

اما الاجراءات الادارية التي مارسها محمد علي باشا، فقد كانت جزءاً اساسياً في عملية تكوين الدولة الحديثة، ولم تزل الممارسات البيرقراطية في مصر حتى يومنا هذا. لقد الغى محمد علي باشا التشكيلات الادارية القديمة التي عاشت قرون طولية على امتداد العهود العثمانية، وأعاد تنظيم جهاز الدولة على نحو تجديدي بتشكيلات حديثة ...

كانت مصر احدى الولايات العربية التابعة للامبراطورية العثمانية، وبين محمد علي باشا والي يخضع للسلطان العثماني دون ان يعلن استقلاله رسمياً، وبقي يحمل رتبة «الباشوية»، ويحتفظ بقناع الولاء التقليدي ضمن اطار الاحكام الامركزية العثمانية، لكنه لم يكن ينفذ اوامر الباب العالي، إذ يتتجاهل كلّ ما لم يتفق ومصالحه.. فغدت مصر دولة لها استقلالها الواقعي وال الرسمي، اذ كانت

تمتلك حكومة وجيشاً وقوانين وانظمة متنوعة خاصة بتسخير واقعها السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وعلى الرغم من دفع محمد علي باشا ضرائب سنوية الى السلطان تقدر بـ٣٪ من مجموع نفقات ميزانية الدولة، فقد بقي يتسلّم من السلطان العثماني التقليد المتعارف عليه، وبقي ذكر السلطان سارياً في خطبة الجمعة والعيدية.

لقد اهتم محمد علي باشا بـ«الادارة»، فاستحدث مصطلح «المديريّة» التي تقابل اليوم مصطلح «المحافظة». وظهر مصطلح «رئيس المركز» الذي يعني باشرافه الى القصبات والقرى، وهناك مصطلح «الحكمدار» الذي يعد حاكماً عسكرياً ومدنياً في الاقاليم التي تستولي عليها مصر من غير اراضيها.

كانت الحياة الادارية في مصر قد تعقدت كثيراً باجهزتها وعناصرها على عهد محمد علي باشا، إذ أثّرت التغييرات الاقتصادية والتحولات الاجتماعية على طبيعة الادارة والنظام المالي، فضلاً عن التوسيع في الجيش وتشكيّلاته المرتبطة بالادارة العسكرية المنفصلة عن الادارة المدنية، وكل هذا شيء جديد على الحياة المصرية العثمانية. واستفاد محمد علي باشا من معطيات خططه وتطبيقاته في مجالات أخرى، إذ استطاعت المدارس والمعاهد المصرية الحديثة ان تخرج في أروقتها شباباً كفوءاً كان يتطلّبهم الجهاز الحكومي وتحتاجهم التشكيلات الادارية المتنوعة التي اخذت تزداد يوماً بعد آخر.

الفَّ محمد علي باشا مجلساً للحكومة اسمه «الديوان العالى» ومقره في القلعة وكسلطة تنفيذية في البلاد، وألف بعد ذلك مجلساً اسمه «المجلس العالى» يتكون من «ناظار» (مدير) الدواوين وكبار رجال مصر، واثنين من العلماء يختارهم شيخ الجامع الازهر، فضلاً عن اثنين من التجار يختارهما كبير تجار القاهرة. لقد الغى محمد علي باشا اكثراً تلك «المجالس» لأنّه وجد انها لم تؤدِ واجباتها بالصورة المثلثى، ثم اصدر لائحته الادارية الشهيرة بـ«القانون الاساسى» (=قانونه سي) في سنة ١٨٣٧م، وبرزت التشكيلة الحكومية التنفيذية متركزة بسبعة دواوين (=وزارات)، هي:

- ١- ديوان الخديوي (=وزارة الداخلية)، ويختص بالشؤون الامنية والشرطة والتحقيق.

٢- ديوان الإيرادات (= وزارة المالية).
 ٣- ديوان الجهادية (= وزارة الحرب).
 ٤- ديوان البحر (= وزارة البحريّة).
 ٥- ديوان المدارس العام (= وزارة التربية)
 ٦- ديوان التجارة (= وزارة التجارة).
 ٧- ديوان الفاوريريات : الفابريكات (= وزارة الصناعة).
 يقف على رأس كل ديوان من تلك الدواعين ، «مدير» يقدم تقريره الأسبوعي عن أوضاع مالية، وكشف بالحسابات.
 لقد استطاع محمد علي باشا ان يحل مشكلة الملّاکات الوظيفية في التشكيّلات الإدارية بالاعتماد على المصريين بدليلاً عن الاتراك والماليك الذين كانوا ينتشرون كبكوات وكشاف وموظفين، وهم يمارسون اعمالهم باستبدادية وعنف. وكان محمد علي باشا قد انشأ جهازاً إدارياً مركزياً يرتبط بقصره. أما وزاراته فقد أقرّها على النمط الأوروبي محدوداً وظائف وواجبات كل وزارة (= ديوان) . وقد استحدث فيما بعد ديواناً للخارجية... وفي كل ديوان مجالس تنظر في القضايا الخاصة.

قسم محمد علي باشا مصر الى اقاليم عدة (= سبع مديريات)، يترأس كل واحدة منها، مدير لمركزية مصر الاقليمية، وتقسم المديرية الى «مراكن» يترأس كل مركز منها «مأمور». أما الوحدات الإدارية الصغرى، فيطلق عليها «الناحية»، ويترأسها «الناظر» والناحية تتكون من وحدات اصغر، هي «القرى». ويقف على رأس كل قرية «الشيخ» و «العمدة» ..

هكذا استطاع محمد علي باشا أن يرسي قاعدة راسخة للادارة المصرية في العصر الحديث، وتسسيطر حكومته على كامل التراب المصري، وقد نجح هو نفسه في ادارة جميع حلقات جهاز الدولة.

نستنتج أن محمد علي باشا قد نجح في مشروعه لتحديث الحياة الإدارية بمصر، على النمط الأوروبي الفرنسي، وقد تهيأت له ملّاکات من المثقفين

البورجوازيين الذين استخدموها في عملية جعل مصر : دولة حديثة وعلى النمط الأوروبي ” .

ولكن؟

اعتمد محمد علي باشا في توزيع المناصب العليا والمهمة على أولاده وعلى افراد عائلته، واصهاره واتباعه المقربين الذين أغدق عليهم الأموال والاقطاعات بعد أن تخلصت تلك المناصب من سيطرة الأقلية كاليهود والقباط والشوم والعلوج ... (العلوج : هم الوربيون الذين أسلموا). وكان إبراهيم باشا قد أصبح دفترداراً للولاية، فأنهى بذلك احتكارات الأقلية، ثم نقل إلى حاكمة الصعيد، ثم ولاه (أبوه) محمد علي باشا قيادة الحملة المصرية نحو بلاد الشام.

٣ / التحولات الاقتصادية والاجتماعية:-

عَدَّ محمد علي باشا «الأرض» مصدراً الثروة الأساسية في تحقيق الرخاء الاقتصادي والرفاه المادي للبلاد، لذا كان هذا الرجل من أبرز زعماء العصر الحديث يشجع الزراعة ويطور نظام الري، ويدخل مخصوصيات جديدة إلى البلاد. لقد بدأ مشروعه في البناء الاقتصادي والصلاح الزراعي من خلال سحقه للنظام الاقتصادي القديم، وانزاله ضربات قاضية بملكية الأرض للملتزمين والماليك ...، إذ قام في عام ١٨٠٨م بمصادرة أملاك الملتزمين الذين امتنعوا عن دفع الضرائب. وفي عام ١٨٠٩م حرموا من نصف الفائض. وفي عام ١٨١٢م أمم الأرضي، ووضع يده على جميع مساحاتها التي كانت في حوزة المالك، وفي عام ١٨١٤م الغى نظام الالتزام بكامله بشكل قطعي، فصار الفلاحون يدفعون الضرائب إلى الدولة مباشرة ، لا إلى الملتزمين ، فقضى على التبعية الاقطاعية القاسية، ورق الالتزام.

الغى محمد علي باشا نظام الالتزام وعوض الملتزمين كثيراً، وبدأ بإعادة تنظيم الأرض وتوزيعها، فتصادر الأرضي (= وهي الأرض المحفوظة من الضرائب)، واستولى على أراضي الرزقة (= المعطاة لكتار رجال الدولة)، واراضي الآثر (= الموروثة) ... ولكن لم يتعرض للابعاديات (= الأراضي البور التي استصلاحها أصحابها شرط لا ينقل حق الانتفاع بها لغير الورثة الشرعيين). واجرى مسحا

« راجع ما كتبه كل من المؤرخين . دودوبل ودوين وهولت وغاف لطفي السيد وستانفورد شو

شاماً لالارض الزراعية عام ١٨١٣م، ثم بدأ بتوزيعها على الذين باستطاعتهم استثمارها وشملهم بحق التصرف والنفعة بها لا حق التملك لها.

هكذا، اعاد توزيع الاراضي الزراعية على الفلاحين، فأعطي كلًا منهم خمسة أفدنه لاستثمارها، ولكن حسب الاسس والتعليمات التي تقررها الدولة التي لها حق استرجاع الارض اذا عجز الفلاح عن استغلالها استغلالاً أمثل، أو عجز عن دفع الضرائب المترتبة عليها، فضلاً عن ان الدولة هي التي حددت نوعية الزراعات لكل منطقة واقليم، وعند جنى المحاصيل، فان الدولة تتسلّمها وتخزنها بعد ان تأخذ حصصها نظير الضرائب المقررة، ثم تقوم بشراء الباقي باسعار تقررها هي دون ان تصل الى اسعارها الحقيقية، فتقوم ببيعها الى التجار الاجانب بتلك الاسعار الحقيقية، فتحقق ارباحاً كبرى.

يعد الغاء الالتزام في مصر من ابرز الانجازات في تحديث المجتمع المصري، اذ شعر الفلاح ولأول مرة انه عضو في دولة ومجتمع.. ولكن افسحت الدولة المجال لتبلور طبقة جديدة في المجتمع المصري هي الطبقة الارستقراطية من المالكين والاقطاعيين المحدثين والذين قدر لهم ان يقوموا بدور خطير في تاريخ مصر الحديث على مدى (١٥٠) سنة، أي خلال عهود أسرة محمد علي باشا، لم يسمح محمد علي باشا في بداية مشروعه ببناءه الاقتصادي، ان تكون هناك ملكيات واسعة حتى لا تقوم طبقة من المالكين والاقطاعيين. وكان يعد نفسه وحده هو المالك الحقيقي لمعظم اراضي مصر وزراعاتها، واحتكار ارباحها باسم «الدولة»، وأراد تخفيف هذا النظام الذي حمله على كاهله لوحده، فبدأ بتحويل الاراضي الاميرية الى اراض خاصية مرة أخرى.. ففي الثلاثينات بدءاً من كانون الاول / ديسمبر عام ١٨٢٩، أخذ محمد علي باشا يوزع الاراضي الاميرية على نحو واسع على اقاربه ومقربيه وكبار الاعيان والموظفين وافراد اسرته وضباط الوحدات الالبانية والكردية والجركسية والتركية فسميت الاراضي الزراعية المنوحة لافراد اسرته باسم «جفالك» (ومعناها في التركية: «ملك»)، واعفيت من الضرائب ، وتعطي بها وثائق تسمى «تقاسيس» او حجج محررّة في المحاكم الشرعية. أما الاراضي الزراعية المنوحة لحاشيتها وكبار موظفيه وقواده المخلصين ، فسميت بـ «البعاديّات» وذلك لأنها مستبعدة عن المسح.

لقد استطاع محمد علي ان يطور الزراعة، ويزيد من المساحات المزروعة، فأنشأ ديواناً (=وزارة) للزراعة عام ١٨١٥م، لكي يشرف على تنظيم الزراعة واستغلال الوادي الجديد، واصلاح الارض، وحفر اكثراً من الف ترعة وساقية، وزرع اشجاراً ونباتات جديدة... وجمع المزارعين في «كفور» (قرى)، كما جلب انساناً من بلاد الشام في تطوير مشروعه التحديسي.. كما وأدخل زراعة المحاصيل الجديدة التي لها استراتيجيتها الاقتصادية والمدرة عليه عملات أجنبية، مثل القطن. كما واهتم بالزراعة الصيفية المروية السيقية، واستحدث نظام القروض للمزارعين اموالاً وبذوراً. واحتاجت الزراعات الجديدة الى توفير المياه، فبدأ بشق العشرات من الترع، ومن أهمها: ترعة محمودية، وسخر ثلث مليون فلاح في العمل ، حتى مات الكثيرون من شدة التعب والبرد.

لقد غدا الفلاحون يوماً بعد آخر برفقة اراضيهم التي يقطنونها ويزرعونها منذ مئات السنين، من جملة الاملاك التي حصل عليها الاقطاعيون الجدد الذين صاروا يدفعون ضريبة «العشر»، فاشتق منها مصطلح «العشريّة» فيما بعد. ونستنتج ان محمد علي باشا الذي قضى على الملتزمين والماليك والطبقة الاقطاعية القديمة قام بتأسيس طبقة جديدة من النبلاء الاقطاعيين المنتسبين لنظامه والذين عدوا سندالاً للاسرة الحاكمة التي ارسى قواعد حكمها محمد علي باشا، ولكن البقايا المملوكة المبعثرة التي سكنت القاهرة بقيت تتأسى على ممتلكاتها الضائعة وسلطاتها المفقودة، ولم تنفع عملياتهم وعصيائهم لاعادة النظام الاقطاعي القديم للماليك.

هكذا، نجح محمد علي باشا في اجراءاته تلك، وحقق المزيد من التحولات الواسعة في مصر كبلد زراعي في المقام الأول، موفراً لمشروعه الاستراتيجي الادوات والوسائل، ومنها: أساليب الري واستصلاح الاراضي، وتصدير المحاصيل .. ساعدته جميعها في انتاج سلع محلية، وتطوير مرافق اخرى في الحياة المصرية الحديثة.

اما بشأن التطوير الصناعي فقد حدثت انتقالات اجتماعية واقتصادية في الآليات الحرفية والمهن المرتبطة بها الى ورشات كبيرة ومصانع يدوية عرفت بـ (المانيفا توارث)، وهناك شيدت ايضاً معامل لصب المعادن والحدادة في مدینتي

القاهرة ورشيد، فضلاً عن مصانع للاسلحة على غرار المصانع الفرنسية، ومحسانع نترات البوتاسي والبارود، وهناك الانسجة من القطن والكتان اضافة الى الاجوانح والحبال والطرابيش.. ومصانع للسكر والالبان، وتعود ملكية تلك المصانع لاحدى قوتين كبريين في مصر؛ الدولة او لأفراد الاسرة المالكة.

وقد استفادت الحلقات الصناعية في مصر كثيراً من التطور في الانتاجية الزراعية، وخاصة القطن والسكر الى حد بعيد، وكان للقطن المصري قيمة دولية كبيرة في السوق العالمية .. فضلاً عن بقاء الانتاج الحرفي في المدن المصرية، فكان أن أصبحت الحكومة تسيطر على الانتاجية متعددة الرؤوس والمليادين الزراعية والحرفية والصناعية. وقد تحقق السيطرة تلك من جراء فرض نظام للاحتكارات اذ يعد جهازاً له طابعه الخاص في التنظيم والمركزية الادارية في حياة البلاد الاقتصادية. وقد جاء تكوين نظام الاحتكارات في الاساس على مدى اربع سنوات للفترة ١٨١٦ - ١٨٢٠م، وكان له مساواه بالنسبة للفلاحين والحرفيين الذي تضوروا جوحاً بسببه، في حين بدأ يدّر بايرادات خيالية على الحكومة المصرية، فمنحها إمكانات ضخمة في بناء جيش مسلح وأسطول قوي... فضلاً عن الفوائد التي جناها التجار من جراء احتكار البضائع بالجملة.

اما الحالة الاجتماعية المصرية فيكفي ان نقول ان جملة هذه التطورات في المليادين كافة قد أثرت بدون شك في مختلف الشرائح الاجتماعية سلباً وايجابياً نسبة الى الواقع الاجتماعي للافراد والجماعات والوحدات الاجتماعية، فضلاً عن نوعية العمل وطبيعة التعامل بين الحكومة والشعب. اي نوع العلاقة بين الدولة والمجتمع. ولقد كانت احوال مصر الاجتماعية قد سبقت غيرها من الاقاليم العربية في الشروط الموضوعية التي حكمتها من جراء التحولات السياسية والتحديشية التي جاء تحقيقها على حساب الشغيلة والمزارعين والحرفيين الذين بدأوا يعيشون ظروفاً صعبة، بل ويکابدون مشقات اكبر مما كانت تتعرض له البروليتاريا الصناعية - الاوروبية .

كانت البضائع في مصر محمد علي باشا اشبه بثكنات ومعسكرات تتبع فيها اساليب وانظمة وتعليمات صارمة، وكان العمال منظمين في فصائل وسراباً وكتائب، وهم يخضعون لامراء وزعماء يلزمون باجراء التمارين العسكرية بعد انتهاء العمل، كانت الاجور زهيدة، وحياة اغلبهم بائسة، ولم تكن تلك اوضاع الفلاح المصري باحسن حالاً مما تقدم آنفاً، اذ لم يجر اي تحسن على اوضاعه مذ

تخلص من البكوات الماليك والمتزمنين والسباهية وضرائبهم الباهظة والبغضة ... لم ينتشل من أوضاعه ويحسن من حياته... كان عليه أن يعمل (٦٠) يوماً من كل عام سخراً في أراضي محمد علي باشا وحاشيته ، وازدادت الضرائب بحسب عاليه . وغدا الفلاح المصري معرضاً للخدمة العسكرية ومهدداً بخدمه الاحتياط . وامام الضغوط التي كان يمارسها في حياته كان يسلم منتوجاته الى محكري الحكومة باسعار مخفضة، لأن ليست له الحرية في حق التصرف بمحاصيله ومنتوجاته .

لقد حصلت تمردات في الاوساط الفلاحية في الريف، والحرفية في المدن، بعد ان غدا الكثيرون تحت وطأة مظالم شتى، فلاذ قسم من اللاجئين الى سوريا، وثار قسم آخر، الا ان الحكومة استطاعت ان تcum الانتفاضات الاجتماعية بالقوة، وخاصة تلك التي حدثت عام ١٨٢٢م، وعام ١٨٢٣م في مدينة المنوفية، وعام ١٨٢٤م في الوجه القبلي، وعام ١٨٢٦م في منطقة تلبيس ... وبرغم ذلك كله فقد بقيت الدولة اقوى كثيراً من تحركات المجتمع وطالبيه الكثيرة* .

٤ / التعليم والمدارس وتطوير الثقافة العربية:-

يعود الفضل في ارساء قواعد الثقافة المصرية الحديثة وأسسها الى الاجراءات التي مارسها محمد علي باشا الذي اهتم كثيراً بتطوير التعليم والمدارس على النمط الحديث و اذا كانت عملياته تلك بهذا الخصوص قد استهدفت تطوير آليات مؤسساته الاخرى العسكرية والمدنية بالكفاءات والمهارات والاساليب الجديدة من لدن حملة الاختصاصات، فان نتائجها قد افادت حركة المجتمع المصري، وطورت فعالياته، ببروز النخب المثقفة، وذوي الاختصاص والمهندسين والموظفين والخبراء، ولا سيما في المدن المصرية. وببدأ هؤلاء يتزايدون على حساب الفئات الازهرية القديمة التي كانت تحمل ثقافة دينية تقليدية فقط، وتمتلك نزوعات محافظة على قيمها واعرافها الاجتماعية الموروثة.

* راجع مقارناً ما كتبه: لوتسكي وغرايبة وعمر عبد العزيز عمر وابراهيم خليل احمد وبالبطريقي ...

استقدم محمد علي باشا عدداً من المدرسين الاجانب الذين لا يجيدون اللغة العربية فبدأ المجتمع المصري يتعرف على ما هو جديد، وخاصة وان التعليم كان مجانياً، بل ويكافأ الطلبة والتلاميذ بمرتبات شهرية. وأوفد محمد علي باشا العشرات من الشباب المصريين الى اوربا (وعلى الاخص: فرنسا) لدراسة العلوم العسكرية والطبية والهندسة والزراعة واللغات والقوانين . وببدأ المتخصصون من الاساتذة العلماء يتترجمون الى اللغة العربية الكتب المتخصصة والمدرسية تمهدىاً لتمصير الدراسة، فقد انشئت في عهد محمد علي باشا أول مدرسة للهندسة عام ١٨١٦م، ثم اسست مدرسة للطب عام ١٨٢٧م، واعقبها تأسيسات مدارس الصيدلة والالسن والصناعات والزراعة والبيطرة، وكلها تنتمي الى «ديوان المدارس» الذي يشرف على المؤسسات والاجهزة التعليمية والتربيوية، ويقوم بوضع المناهج واللواائح والقوانين ... واكتمل النظام التعليمي بين سنتي ١٨٣٦ - ١٨٤٠م، حين كان في مصر (٥٠) مدرسة ابتدائية وثانوية، الأولى في القاهرة والثانية في الاسكندرية.

كما اشرف «ديوان المدارس» على نظام البعثات العلمية الى دول أوروبا المختلفة منذ عام ١٨١٣م، وكان للبعثات دور كبير في انتشار الاستنارة والوعي، وغسل الاذهان، والمشاركة في التحديث، وبلورة العصرنة من خلال فعاليات النخب المثقفة والمستفيدة التي عاشت فترة من حياتها في أوروبا واطلاعها على الاساليب الاجتماعية والفكرية الحديثة... وكان ان رجعت الى مصر وشاركت فيها لأول مرة . ايضاً في تاريخها : المدارس العلمانية العامة، ثم المدارس العسكرية والمدارس العليا في الآداب والعلوم والفنون ... فضلاً عن نشاط الفئة المستفيدة المصرية في التأليف والترجمة والصحافة والوظائف الحكومية . ثم الممارسات البير وقراطية والتكنوقراطية . وكان قد بلغ عدد الطلبة الذين أرسلهم محمد علي باشا للفترة ١٨٤٧ - ١٨١٣م الى دول اوروبا الغربية (٣١٩) طالباً مبعوثاً . وكانت البعثة الاولى تضم فئة من الطلبة الازهريين الذين كان من بينهم رفاعة رافع الطهطاوي (المولود عام ١٨٠٤م) والذي كان له دوره الفعال في بشائر النهضة الفكرية المصرية بعد رجوعه من فرنسا . وهناك علي مبارك ايضاً وغيرهما.

انشا محمد علي باشا ايضاً في عام ١٨٢٢م ولأول مرة في تاريخ مصر داراً للطباعة في بولاق . والتي بدات بطبع الكتب باللغات العربية والفارسية والتركية .

وصدرت في عهده أول جريدة مصرية هي «الوقائع المصرية» .. واكتسبت مطبعة بولاق شهرة عريضة في ارجاء الوطن العربي. وكان لها دور كبير في ترسيخ الثقافة العربية والتراث الاسلامي ونشرهما. اما جريدة «الوقائع المصرية» ف فهي تعد أول جريدة عربية رسمية تصدر في الوطن العربي .. ثم تعددت الصحف المصرية خلال القرن التاسع عشر.

وبفضل ما وصلت اليه مصر من حالة في التطور والتحديث فقد غدت ميدانًا فعالاً للهجرة، اذ استقطبت هجرة السوريين اليها في اعقاب مذابح ١٨٦٠م، وخلال عهد السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ - ١٩٠٩م. وقد شارك أولئك السوريون في تطوير الصحافة والأداب العربية في مصر.. وخاصة عندما نعلم بأنه ما أن حلّت سنة ١٨٨٢م حتى كان عدد الصحف اليومية في مصر ثلاثة وثلاثين صحيفة ، ولا تزال احدها وهي جريدة «الاهرام» تصدر حتى يومنا هذا منذ القرن التاسع عشر.

اما المدارس والمعاهد المتخصصة فقد تطورت كثيراً، وكان لها شأن كبير في النهضة الفكرية المصرية والعربية بعامة، وقد اشرف على نظارة تلك المعاهد والتدريس فيها أولئك المصريون الذين رجعوا من أوروبا محملين بثقافة حديثة وشخصيات نادرة وكان من ابرز تلك المدارس هي مدرسة الالسن. وكانت المناهج الدراسية المتبعة هي مناهج عصرية تتافق وطبيعة الحياة العلمية والفكرية التي كانت أوروبا تعيشها.

هكذا، حققت مصر تقدماً بالغاً في هذا الشأن، وسبقت غيرها من الاقاليم والبيئات العربية التي اخذت تتأثر بها شيئاً فشيئاً، ولا سيما وان مشروع محمد علي باشا في هذا المجال قد امتد الى مختلف الميادين العسكرية والمدنية ليكسبها بالمزيد من الكفاءات والتخصصات. ويتفق اغلب المؤرخين على ان الفضل في ذلك كله الى محمد علي باشا الذي يعد اول حاكم شرقي يفك في ذلك وينفذ بجدية وفعالية ونشاط وعلى مستوى رصين وباللغة العربية التي لم يكن يجيدها، ولكنه عزّز آدابها وعلومها من خلال مشروعه الثقافي والتعريفي الكبير^{*}.

* التفاصيل في : د. جمال الدين الشيّال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، القاهرة، ١٩٥١.

٥ / استنتاجات : تقويم تجربة محمد علي باشا

نستنتج أن محمد علي باشا هو أول الحكم في المنطقة الذين آمنوا بفكرة التحديث الشرقي . ومارس عملياتها الأولى في مصر بجد ونشاط . وقد حملت سياساته طابعاً تقدماً واضحاً ، على الرغم مما أوقعه على كاهل شعبه من الضرائب والاعمال . واستطاع الرجل أن يغير الانماط الانتاجية القديمة قليلاً ، لكنه يزحزح المجتمع المصري من اطره ومرجعياته المنتمية للعصور الوسطى ، ويخلصه من البنية المملوكة ومخلفاتها العتيقة ، وخاصة في المدن المصرية المكتظة بالسكان . كما وأنه استطاع أيضاً أن يعزز «الدولة» بالتنمية الاقتصادية ، والدفوعات العسكرية البرية والبحرية ... وصنع جهازاً وظيفياً وأمنياً فعالاً في الداخل ، مع ما رافق ذلك من اصلاحات جديدة .

لقد قضى محمد علي باشا على رواسب التفكير عند المؤلفين والدارسين الذين اكتسبوا وعيًا جديداً . ونجح في بناء مؤسسات تربوية وتعليمية علمانية مستبدلةً بالأساليب القديمة مناهج حديثة ، متخذًا من فرنسا مثلاً للرقي والازدهار والتطلع والحيوية ... ولكنه كان قاسياً في ممارسة سياساته التوسعية وكان يحلم ببناء امبراطورية واسعة تحمل اسمه وتحتوي على قوميات واقليات عديدة . واتسمت سياساته بالنير والحرروب المتواصلة والتوسعات ، ومناهضة الدول الكبرى ، وبخاصة انكلترا التي وقفت حجر عثرة أمام تحقيق طموحاته وأماليه وتطلعاته ... وقد قوض حكمه في نهاية الأمر . ولم تتحقق مصر الاماني الوطنية والإقليمية التي عاشت عليها زماناً طويلاً !

وفي الجانب الاقتصادي فإن محمد علي باشا لم يفرض على مصر نظاماً اقتصادياً معيناً وجديداً تماماً ، بل انه حدث النظام القائم ووسع مجالاته . كما ان نظام حكمه كان بمثابة استجابة لمتطلبات ذلك النظام الاقتصادي الذي ولد في مصر خلال القرن الثامن عشر قبل تولي محمد علي باشا السلطة . ان تحديث مصر لم يأت من الفراغ ، بل وان الدولة المصرية التي بناها هذا الزعيم لم تولد من ذات نفسها ، اذ ان لها سوابق ومرجعيات تاريخية تعود الى القرن الثامن عشر ، فقد كان هناك في مصر خلاله حلف قائم بين المالكين والتجار الذين كانوا يحركون بعملياتهم التجارية السوق الدولية في مصر وعلاقتها الاقتصادية بالأراضي والبيئات العثمانية برأ ، والبيئات الأوروبية بحراً . فأتتيح لهم أن يسيطروا على

مساحات شاسعة من الاراضي .. وقد أضفى الصدام مع نابليون بونابرت عاملاً بارزاً آخر في جعل مصر مهيئة للعمليات التحديثية.

لقد كانت تجربة مصر ابان الحملة الفرنسية عليها ١٧٩٨ - ١٨٠١م، تجربة حافلة بالتفاعل السلبي واليجابي على حد سواء.. وقبلها كانت تجربة علي بيك الكبير المملوكي الذي كان قد سعى الى اقامة حكومة مركزية مصرية لها شخصيتها المستقلة قليلاً عن لا مركزية البلاط العثماني : حكومة تتمتع بالقانون والنظام مما أدى الى حالة استقرار داخلي كانت مصر قد افتقدته، فقد عاشت حالة صراع داخلي(كالذى وجدناه في دراستنا المتقدمة / الفصل الرابع).

ان كل تلك الدوافع التاريخية جعلت من مصر على عهد محمد علي باشا دولة لها تجاربها التاريخية، وقادتها التطورات الى التوسع في بلاد الشام والحجاج، وتكون جيش من المرتزقة يستعمل الاسلحة النارية كالمدفعية .. انه برنامج متراوط في حلقاته التاريخية التي لم تتواصل في بيئات عربية اخرى تمتعت بامكاناتها الاقتصادية وعلاقاتها الامركزية خلال القرن الثامن عشر اكثر من مصر بالذات!

لقد تطور عدد السكان في مصر - مثلاً - كثيراً حتى وصل في نهاية القرن الثامن عشر الى ٢,٥ مليون نسمة. ونجح محمد علي باشا باستخدام السكان والابادات في خلق دولة عسكرية ومركز سياسي فعال، متيناً نصف ايرادات دولته كخصصيات للجيش واقامة التحصينات وانتاج الاسلحة، واتبع سياسة اقتصادية فعالة وخاصة للاراضي والضرائب .. وان نزعته التحديثية كانت ترتكز على دعم مركزه الشخصي معتمداً على التصنيع السريع، الذي يتطلب امكانيات مالية وبشرية غير قليلة.

اما ابرز السلبيات التي رافقت عمليات محمد علي باشا في التحديث الشرقي لمصر فتكم من في ما يأتي :

١. فشل تجربته بسبب فرض صناعة حديثة على قاعدة بدائية من جماهير الفلاحين.
٢. لم تكن المشاريع المتواضعة لحمد علي باشا في ميدان التعليم والتخصص كافية لتخطيئة ما تطلبه التحديث من اجهزة ومرافق وادوات، ولا سيما في الدراستين: الاعدادية والمهنية.